القسم الخامس

مابين الاتحادين الفرنسى والسوفييتى من تشابه

ما كنت أعتقد حينما كتبت الكلمة الثالثة عن الاستعمار الفرنسى والتى أشرت فيها إلى ثلاث هيئات اتحادية تقف أمام الأمم الاسلامية وحريتها أن تبرز المتناقضات بهذه السرعة فقد وضعت الاتحاد الهندوكى بجوار الاتحاد الفرنسى والاتحاد السوفييتى وقلت عنها أن كلا منها يعطى لنفسه مظهر حركة تقدمية يصبغها بصبغة التحرر، ويريد أن يقنع الضمير العالمى أن الاتحاد هو وليد إرادة شعبية، وأنه من مصلحة الأمم والشعوب الداخلة فيه، ويعلم القائمون بأمر كل اتحاد منها أن هذا بعيد عن الحقيقة بعدا تاماً، ولذلك سيكون كفاح الأمم الاسلامية فى طريق الاستقلال والتخلص من هذه السيطرة الاتحادية المفروضة عليهم شديدا فى الهند والمغرب، قاسيا جداً فى أواسط آسيا، ولكنى مؤمن وواثق باننا ستغلب

لا لأن الحق معنا وكفى ، بل لأن قوانين الكون الملازمة لطبيعة الأشياء وتجارب التاريخ معنا ، وستذهب قوات الطغيان التى تستعبد المسلمين أو تحاول ذلك هباء منثورا ، وتندك صروح بنيت على تضليل الناس .

ومن قبيل هذه الثورة القائمة علينا البرقية التى جاءت بأن البنديت نهرو يحذر الأمم العربية ويقول (إننا لا نعترف باستقلال أية دولة تقام فى الهند وسنعتبر الاعتراف من أية دوله أجنبية بهذا الاستقلال عملا لا ينطوى على الصداقة)[1]

وفى بعض ماورد بالجرائد المصرية مقال عنوانه (الباكستان خير أم شر) ويقول كاتبها أن استقلال المسلمين فى الهند يتعارض مع العالمية التى هى من مظاهر الكون ونحن لا نعارض هذه العالمية ، ولكننا نفرض استقلال البلاد الاسلامية كشرط أساسى للتعاون الاقليمى ثم التعاون العالمى والا تعرضت الجماعات الاسلامية للزوال وضاعت شخصيتها وانهد كيانها .

وأعود إلى فرنسا وامبراطوريتها وما تنويه من فرض الاتحاد على الشعوب العربية والاسلامية بعد أن رأينا رجال الفكر يسبقون التاريخ فى هذه الناحية ويرسمون خطط السيطرة والغلبة ، فقد ذكرنا فيما تقدم إشارة عن مؤتمر برازافيل الاستعمارى الذى عقد بافريقية عام ١٩٤٤ وجمع أساطين الاستعمار ودهائه ، واستعرض

---

(١) انتهت أزمة الهند بالاعتراف باستقلال الباكستان ، ولكن الولايات التى نزعت منها قد جعلت كيان الباكستان ضعيفاً والمستقبل محفوفا بالأخطار .

برامج المستقبل ، وأشار بتأكيد سياسة الاتحاد بين فرنسا ، وما تملكه من الأراضى الواسعة فى افريقية وآسيا وصهرها فى كتلة واحدة

ويهمنا أن نتتبع المسائل العامة التى دارت المناقشات حولها ، فقد برزت هناك فكرتان : فكرة التعاون ، وفكرة الادماج ، ولكل من الفكرتين أنصار وخصوم .

ومعنى التعاون إعطاء الأمم أو الاقاليم شيئا من الحرية والحكم الذاتى بالتدريج ، ثم دعوتها إلى التعاون مع الدولة صاحبة السيادة فى نطاق اقتصادى ، كما هو الحال فى بعض المستعمرات البريطانية ، ومعنى الادماج أن تفرض على الشعوب المحكومة أنواع من الارهاب والترغيب ، تنتهى إلى إيجاد شعور يقول : بأن مصلحة المجموع أن يندمج مع الأمة الحاكمة فى جنسية واحدة .

ويقول خصوم التعاون : إنه فى النهاية يؤدى مع الزمن إلى حياة الدومنيون الاستقلالية ، وهذا لا يتفق مع المنطق الفرنسى الذى يميل الى المركزية ، ولا يسلم بتوزيع السلطات لانه فى النهاية يعرض الكيان الامبراطورى إلى الانهيار .

ويقول منتقدو الادماج : اذا سرنا خطوات كبيرة فى سبيل ذلك وتكلم خمسون مليونا لغتنا ، واخذوا بثقافتنا ودخلوا مجالسنا النيابية ، وحصلوا على حقوق المواطنين ، وضعنا مستقبلنا بين أيدى ناخبين أجانب من

شعوب ملونة منحطة ، وقد تغمرنا موجات فكرية وثورية لانقدر على كبحها ، أو قد تتحالف هذه العناصر مع عوامل الهدم الفرنسية وتعمل مع احزاب اليسار ، لتفرض ارادتها : حينئذ يفلت الزمام من الأيدى الفرنسية الرشيدة العاقلة ، وتعرض حياة الأمة إلى اخطار جسيمة .

خرج مؤتمر برازافيل إلى الاخذبحل وسط ، يجمع بين التعاون والادماج ، فسياسة التعليم بنيت على إدماج الشعوب فى الثقافة الفرنسية . إذن يجب أن تشتد هذه السياسة التعليمية ، وان يكون هدفها اضعاف اللغات القومية ، وخصوصا اللغة العربية وفى المستعمرات الافريقيه تقرر منع التبشير المسيحى باللغات القومية ، وجعل تدريس قواعد الدين الكاثوليكى باللغة الفرنسية .

ولن أطيل على القارىء سرد بقية القرارات ، فهى مطبوعة . واذ ماذا يهمنا من أمر البلديات ، وطريقة انتخاب المجالس العامة بالمستعمرات ، وزيادة سلطة الحكام ، والتصديق على الميزانيات والقروض ـ مادامت السيطرة المركزية لوزير المستعمرات قائمة . اذاكانت سياسة المؤتمر ترمى الى تأكيد السياسة الفرنسية وتثبيت الرأى النهائى للجاليات الأوربية فى مستقبل المستعمرة ، وجعل الكلمة العليا للكولون الفرنسى ، باعتباره ممثلا للأمة الحاكمة صاحبة الأمر والنهى والسيادة .

فالسياسة التعليمية اتجهت اتجاها إدماجيا ، مسترشدة بالنظم الروسية ، التى تستعين بالمدرسة على إخراج جيل من الناس ، يؤمن بالثورة وتعاليمها . كذلك المعلم الفرنسى من واجبه أن يفرض لغته ، ليخرج طائفة تفكر تفكيراً فرنسياً ، وتنطق بلسان فرنسيا ، وتؤمن بعظمة وأهمية الحصول على الجنسية الفرنسية والافتخار بأن الفرد الأسود هـــو فرنسى أسود وأن اللون لا يمنع أنه من سلالة الغالين سكان فرنسا الأصليين وهذا نهاية ما يصل إليه الغرور الاستعمارى .

ولكن سياسة الإدماج تواجه الشعوب الإسلامية، والإسلام والعروبة فى عالم الاستعمار كما قررنا وباء يصعب مواجهته ، ويستعصى التخلص منه ، فهو راسخ فى عقول ملايين من الناس ، وهو كالنار تحت الرماد . وقد أمضى الاستعمار مع الإسلام عشرات السنين وكلما خيل إلى المستعمرين أنهم قضوا على مشاكله وتغلبوا عليه برزت لهم الأدلة على أنهم مازالوا بعيدين عن زمن القضاء على حيويته ، وأنهم مع ماأوتوا من قوة البطش وسعة السلطان أعجز من أن يكسبوا أمامه المعركة النهائية والقول الفصل .

من هنا فكرت فرنسا فى إيجاد مركز دائم للشئون الإسلامية بمدينة الجزائر ، وأطلقت على هذه الادارة وزارة تنسيق الشئون

الاسلامية، ولنلاحظ أن الاصطلاح الفرنسى يعتبر المسلمين كطائفة مهما كان عددهم كبيرا . أى أن هؤلاء الناس لا يكوّنون أمة من الأمم ، وليس لهم وطن ولا رابطة مع الأرض التى يعيشون عليها، فهم « رعايانا المسلمون » ؛ وهم مسلمون وكفى ، وهذا رأيهم وهو رأى خطير فى نظرى .

وتولى هذا المنصب فى الجزائر صديقنا الجنرال كاترو وهو الذى عرفناه فى سوريا ولبنان مندوبا ساميا ، ولمسنا فى شخصه اجتماع القائد والسياسى معا ، وبرهن على أنه صاحب عزيمة ودهاء ، وفكرة ومقدرة ، وهو يتظاهر بأنه صديق للإسلام والمسلمين ، وإنه يعطف على أمانيهم المشروعة، وأنه يدفع الظلم عنهم، وهو يمثل فى الوقت الحاضر فرنسا بموسكو عاصمة السوفييت ،قلت دائماً إن رجلاله مزايا كاترو، وإلمامه ، وفهمه لشئون الدنيا ، ودرايته بمشاكل الاستعمار لا يترك الوقت يمر أمامه من غير أن يشغله ببحث شئون الاسلام فى روسيا . نعم قد يكون اختياره كسفير لبلاده من قبيل الابعاد السياسى فى وقت ترفض العقلية الفرنسية وضع العسكريين فى الصف الأول ، ولكن كاتروله منزلته ورأيه وشخصيته ،وللاتحاد السوفييتى سياسة مرسومة تجاه المسلمين . حقيقة أن الناس قلما يتعرضون لها ولكن أعين الاستعمار لا تغفل عنها لأن روسيا فى توسعها ،

وانتشار نفوذها واجهت المسلمين كما واجهت فرنسا الاسلام من قبل ومن بعد .

ولكن تجارب روسيا مع المسلمين غير تجارب فرنسا . فالأخيرة كانت تحيا تحت سلطان الحروب الصليبية وتقاليدها ولا تزال إلى اليوم، وهي حروب اشتراك فيها غيرها من الشعوب ، وكانت نهايتها محزنة ، لأن السيوف التي انتصرت هي سيوف المسلمين ، ومع هذا تقلب الكتب الفرنسية الحقائق ، وتجعل من الهزائم الفرنسية مفخرة للشعب ودوافع للعمل والجهاد ضد المسلمين .

أما روسيا فقد عاشت قرونا محكومة بالمسلمين ولاقت منهم شدة وعنتا وبين الكنيسة البيزنطية والمسلمين عراك طويل . (١) ولم تبدأ حملات روسيا بجد ضد الأراضي التي يسكنها المسلمون إلا في عهد كاترين الثانية ، إذ دخلت أقاليم إسلامية كبيرة تحت حكمها ، وكانت أساليب الحكم الروسية سهلة واضحة : ذبح المسلمين ، وتشتيتهم ، أو تركهم إذا قبلوا الدخول في المسيحية . ولقد دخل ملايين منهم في الجنسية والديانة ومن بقي محتفظا بديانته سرا أعلن إسلامه بعد ثورتي ١٩٠٥ و ١٩١٧ .

---

(١) كانت الحروب الأولى ضد خانات قازان وتتار الفولجا للتخلص من سيطرة المسلمين الذين كانت لهم السيادة على الأقاليم الروسية .

ولما اتسع ملك الروس فى آسيا الوسطى وقفقاسيا أخذوا يفكرون فى إيجاد سياسة إسلامية ، وأخذوا يقلدون الدول الاستعمارية الغربية ، ولكن ثورة البلاشفة قضت على القيصرية ، وأعلنت حقوق الشعوب وحريتها ، وسمحت للمسلمين باقامة شعائرهم الدينية بعد أن كانوا محرومين منها فى بعض المناطق ثم عادت فأعلنت الحرب على الأديان كلها ، وكان من الطبيعى أن يحارب الاسلام كغيره ، وهو قوة عالمية ثورية ، شأنه شأن الحركة الشيوعية إذ يحمل كل منهما لواء العالمية ، وتفنى فيه القوميات والعنصريات والطبقات . فالشيوعية تحاول دائما التغلب على الإسلام فى الجهات التى ساد فيها ولها فى هذا المضمار أساليبها الخاصة التى جاءت نتيجة للتجارب التى بدأها لينين فى سياسة التقارب مع الأمم المغلوبة فى ١٩٢٠ و ١٩٢٢ ثم انتهت إلى تحطيم الجمهوريات الوطنية ، وفرض الأنظمة الشيوعية والدخول فى سياسة اتحادية . تخضع أراضى السوفييت كلها لسلطة موسكو المباشرة . أى افناء . حرية الشعوب الإسلامية . سواء فى اسيا أوقفقاسيا أو القرم

وكان أن واجه الشيوعيون مشكلة حكم امبراطورية استعمارية تحت نظام جمهورى اشتراكى ، وخطوا فى السنوات الماضية خطوات جبارة فى طريق الاستغلال واستثمار أراضى البلاد الاسلامية باسم جديد ، وأنظمة جديدة ، وفرنسا من ناحيتها تحكم ملايين من الشعوب

الملونة ، والامم الاسلامية . وتحاول أن تحتفظ بسيادة الجمهورية المركزية على أقاليم شاسعة فهما تتفقان فى معالجة مشاكل متشابهة تلتقى عندهدف واحد، هو المحافظة على وحدة امبراطورية استعمارية استغلاليه بأى ثمن.

واذا سرنا فى المقارنة من الناحية الداخلية نجد أن فرنسا تحكم بلادا لها شخصيه أو شبه سيادة : مثل مراكش ، وتونس ، وبعض أقاليم الهند الصينية ، ولديها بقاع يحكمها أمراء وسلاطين بافريقيه . اما الاتحاد السوفييتى فبعد أن حطّم ممالك بخارى وخوارزم[1]، وحكم الاقطاعيين الذين عاشوا تحت ظلال القيصرية عاد فأنشأ جمهوريات ذات سيادة اسمية فى اذربيجان وتركستان وازبكستان وتاجيكستان والقرغيز ، واعطى لاقاليم أخرى نظام الحكم الذاتى مثل الداغستان وبشكيريا وغيرها .

وهذه الأقاليم التى عددناها إسلامية ، وأهلها مسلمون ومعظم أقاليم الامبراطورية الفرنسية أو اهمها من بلاد الاسلام ويسكنها المسلمون ، ولذلك يحلو لرجال فرنسا أن يقولوا عن بلادهم : إنها دولة اسلامية كبرى ، والسوفييت وان كانوا لا يقرون الأديان فانهم مع ذلك على اتفاق مع الاستعمار الفرنسى ، فى مواجهة المسألة

---

(١) امارة خيوة فى عصر القياصرة الروس

الاسلامية : باعتبارهامعضلة تتطلب الحلول، ولها مشاكلها ومتاعبها ومضاعفاتها ، ولذلك تحتاج إلى دراسة وبحث ، ولهذه سياسة خاصة بها . أى أن للاسلام سياسة مرسومة فى كل من روسيا وفرنسا ترمى كل منهما إلى أهداف مختلفة، ولكنهما تلتقيان فى نهاية واحدة هى أضعاف الاسلام وتقويض اركانه والحيلولة دون قيامه بدور تاريخى

وكلاهما يسير على نهج الادماج ، ونقصد به صهر القوميات فى كتلة واحدة ، ولكن الاتحاد يسير على نمط خاص به فهو يفرض اللغة الروسية ، مع الفكرة الاشتراكية ، والفلسفة الماركسية ، ويقدمها فى قالب واحد . وسار فى هذا اشواطا حتى فى الجمهوريات المسيحية ، لأن حكومة الاتحاد قررت تشتيت مجلس السوفييت المحلى فى بلاد الكرج (جورجيا) لأنه عارض سياسة الاتحاد ، وقرر التمسك باللغة القومية ، وجعل لها المقام الأول فى التعليم وللروسية المقام الثانى ، ثم يتفق مع السياسة الفرنسية فى احياء لغات اندثرت ، وثقافات اندرست ، حين يهاجم الوحدة الاسلامية فى آسيا الوسطى، باسم الفن والتاريخ والثقافة [1] المحلية

ويشبه هذا النشاط سياسة فرنسا فى التفرقة بين العرب والبربر

---

(١) من اكبر وسائل محاربة القومية العربية والاسلام تشجيع استعمال اللغة العامية فى الاذاعة والصحف والاغانى

حتى تظهر ثقافات متباينة فى كل رقعة ، ويفقد الاسلام تلك الوحدة التى اشتهر بها وعرفت عنه .

فلهذا وغيره يبدو الاتحاد السوفييتى فى أنظمته وكيانه كوحدة استعمارية ، تسيطر على أقطار المسلمين ، وتفرض عليهم حكما خاصاً كانموذج صالح لفرنسا ، يصح أن يحتذى به فى أشياء . والفرنسيون أذكياء وأهل منطق يعرفون تماما أن الأنظمة والدساتير لاتبنى الممالك ، وإنما القوة الدافعة هى التى تحميها . والقوة الدافعة فى أراضى السوفييت هى الحزب الشيوعى ، الذى يستند على قوته الثورية ، وأنه حزب عمالى ترتكز عليه الدولة وتخضع لمشيئته ويسيرها كما يشاء .

ولا تملك فرنسا هذه القوة المتصفة بالبطش والفتك ، إذ هى لاتزال تأخذ بأنظمة الدساتير الديموقراطية ، وتعدد الأحزاب فى الحكم .

وهناك مسائل أخرى تفترق عن السوفييت فيها . أهمها أنها تحترم الملكية الفرديه ، وتشجع الشركات والأفراد فى تولى الإنتاج الزراعى والصناعى ، بينما الاتحاد السوفييتى لايعترف بالملكية للفرد ، وإنما يأخذ بالاشتراكية ، ويجعل حق الملكية للدولة ، أو يعترف بالملكية التعاونية . وقد يلتقى النظامان فيما يخص الملكية باراضى بعض المستعمرات . إذ يحرم التشريع الفرنسى على الأهالى

فى بعض المستعمرات ملكية الأرض ويسمح بها لشركات الاستثمار والمستعمرين البيض. ولا نعرف مقدار حظ المسلمين فى المزارع التعاونية بالروسيا ، فقد تكون بأكملها فى أيدى الروس ، فهى لا تختلف إذن عن شركات الاستثمار الكبرى فى المستعمرات الفرنسية ولكن الثابت لدينا هو أن الأهالى المسلمين محرومون من حق الملكية فى جمهورياتهم فهم إذن كأهل المستعمرات الفرنسية السود فى هذه الناحية ولم يكن تطبيق النظام الاشتراكى أو التعاونى لصالحهم بل لتقوية الجاليات الروسية وزيادة افقارهم وضرب الذلة والاملاق عليهم بعد تحطيم الثورات التى قاموا بها (١).

هذه نظرات أولية تمكننا من تلمس بعض مايقال له فوارق ، وبعض ما يلتقى النظامان الاستعماريان فيه من نواح . ولا نقدم جديداً حينما يتعلق الأمر بالأنظمة إذ هى الأسس التى يقوم عليها الاتحاد . وفرنسا تقدر الفوارق والاتجاهات فى الاتحاد السوفييتى ، ولكنها تعجب من الأنظمة كدعامة للوحدة. فالدستور السوفييتى يقول:

بأن الدولة اتحادية تقوم على أساس الاتحاد الاختيارى بين الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية المتساوية فى الحقوق .

وهذا نص مشجع لأن تأخذ به فرنسا فى نظامها الجديد خصوصا وأن معنى الاختيار غير معلوم لدى الروس .

---

(١) لا يتسع هذا البحث لشرح حال المسلمين فى انحاء بلاد السوفييت .

إذ لا يذكر العالم أن إحدى الجمهوريات الاسلامية بآسيا الوسطى جاءت إلى الاتحاد ، وانضمت إليه باختيارها ، وإنما دخلت الاتحاد بعد معارك دموية وقتال استمر طويلا ، ولذلك لن يكون هناك اختيار فى الاتحاد الفرنسى كما قلنا .

وينص الدستور السوفييتى على حق تقرير المصير ، ويعترف لكل جمهورية بأنها ذات سيادة . ولكنه يقيدها بالمادة ١٤ من الدستور نفسه ، وفيها كل ما يهدم شخصية واستقلال وسيادة الجمهوريات المقول عنها بأنها مستقلة وذات سيادة . وهذا النص يجعل حق تقرير المصير غير موجود ، ولذلك سنراه فى دستور الاتحاد الفرنسى وستتمسك به كل دولة اتحادية حينما ترمى إلى السيطرة والتحكم فى مصير الأمم الاسلامية .

ومن المفيد أن نعرض هذه المادة مع بعض التفصيل ليستيقظ الغافلون بمصر . فهذه المادة تجمع طائفة من الامور الهامة الخوية لكل شعب منها ما هو سياسى وعسكرى واقتصادى ، ومنها ما هو ثقافى وتشريعى . فاذا بحثت عن الباقى من سيادة جمهوريات الاتحاد المستقلة وجدته ضئيلا بحيث لا يصح أن يقارن بالسيادة التى تتمتع بها أية ولاية داخل نظام الولايات المتحدة الأمريكية ، فاذا سلمنا بأن حكومة الاتحاد ترى أن من حقها عقد المعاهدات ، وحصر

التمثيل السياسى فيها وتسلم قضايا السلم والحرب ، وتنظيم الدفاع وقيادة القوات المسلحة ، وحماية سلامة الدولة المستقلة . فان هذه المادة تضيف أشياء أخرى تجعل النشاط الاقتصادى بأكمله خارج نطاق عمل الجمهورية المستقلة وبهذا يصبح لاستقلال وهمياً ولا فائدة منه إذ تخضع المشاريع الصناعية والزراعية وإدارة المصارف ووسائل النقل والمخابرات ، ونظام النقد والتأمين ، وعقد القروض وكل ما يتعلق باستثمار الأراضى واستثمار الغابات ، ومساقط المياه فى يد حكومة الاتحاد .

وعلاوة على ذلك يسلب من الجمهوريات سلطتها على كل شئون التعليم والثقافة ، ويسلبها حقها فى التشريع الداخلى الصرف ، إذ تبقى سلطة حكومة الاتحاد هى العليا فى كل ميادين المعارف والصحة ويخضع المحاكم والقوانين من مدنية وغيرها حتى قانون الجنسية وإقامة الأجانب وتنقلاتهم لحكومة الاتحاد هذا مع قرار الاتحاد بأن لكل جمهورية دستورها الخاص بها وهنا تهزأ حكومة السوفييت بالعالم حينما تقول :

أن لكل دولة من الجمهوريات المستقلة مطلق الحرية فى أن تنفصل عن الاتحاد السوفييتى .

ومن قبيل تحصيل الحاصل أن يقرر الدستور السوفييتى أنه فى

حالة التعارض بين القانون الخاص بأية جمهورية مستقلة والقانون الاتحادى وجب على الحكومة المستقلة تنفيذ قانون الاتحاد فلا توجد هيئة عليا كما هو الحال فى الولايات المتحدة الأمريكية للفصل فى تنازع الاختصاص أو تفسير الدستور .

من هذا نفهم ولع الفرنسيين بالاتحادية وأنهم بعد أن قلبوا انظمة الاستعمار وأساليبه من أمريكية وبريطانية وبرتغالية وهولاندية وجدوها لا تشفى غليلهم ، ووجدوا مع اختلاف الأهداف فى نظام الاتحاد السوفييتى مايصح الأخذبه ، والسير عليه إذ فيه تأكيد لسيطرتهم وابقاء لحكمهم .

ولذلك لم تخطىء النظر حينما جاهرنا بأن الأنظمة الاتحادية الفرنسية والتى فى بلادالسوفييت ومايجول بخاطر بعض الهندوس من إنشاء دولة اتحادية والقضاء على حرية المسلمين بالهند ترمى كلها إلى فرض انظمة وأسس رجعية تعسفية حينما يتعلق الأمر بمستقبل الشعوب الإسلامية وحريتها ، لأنها تعطى الاستغلال الاقتصادى والسيطرة والتحكم ثوبا جديدا